المحسنات البديعية وتأثيرها في تدبر المعنى التفسيري للآيات القرآنية الكريمة
دراسة نظرية تطبيقية
(الاحتباك نموذجًا)

دكـتـور
عبدالله صباح الملا
أستاذ التفسير وعلوم القرآن، في قسم التفسير والحديث،
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت

المحسنات البديعية وتأثيرها في تدبر المعنى التفسيري للآيات القرآنية الكريمة، دراسة نظرية تطبيقية (الاحتباك نموذجًا)

إعداد

د. عبدالله صباح الملا

أستاذ التفسير وعلوم القرآن، في قسم التفسير والحديث، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت

ملخص البحث: يسلط هذا البحث الضوء على أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم من خلال دراسة بعض الآيات التي تضمنت هذا الأسلوب، وذكر الباحث أقسام الاحتباك الخمسة، وهي: احتباك ضدي، احتباك متشابه، احتباك متناظر، احتباك منفي مثبت، احتباك مشترك، وأكثرها ورودًا في القرآن الكريم هو: الاحتباك الضدي. وصاحَبَ ذلك ذِكْرُ شروطِ الاحتباك وفوائده البلاغية، وبيان المراحل التي مرَّ بها منذ نشأته إلى أن استقر على ما هو عليه اليوم، ولا شك أنّ تناول دراسة هذاالنوع من الأساليب البلاغية له أثر قوي في فهم وتدبر القرآن الكريم.

الكلمات الدالة: تفسير – القرآن – المحسنات البديعية

Innovative improvements and their impact on contemplating the interpretive meaning of the noble Qur'anic verses .. an applied theoretical study .. confusion as a model.

Abd al-Allah Sabah al-Mulla

Department of interpretation and hadith. College of Sharia and Islamic Studies. Kuwait University.

Abstract:

This research sheds light on the method of confusion in the Holy Qur'an by studying some verses that included this method, and the researcher mentioned the five sections of confusion, namely: confusion against me, similar confusion, symmetrical confusion, proven exiled confusion, common confusion, and most of which are mentioned in the Holy Qur'an is: Confusion against me. This was accompanied by mentioning the conditions of confusion and its rhetorical benefits, and explaining the stages it went through since its inception until it settled on what it is today, and there is no doubt that addressing the study of this type of rhetorical methods has a strong impact on understanding and contemplating the Holy Qur'an.

Keywords: Tafsir – Qur'an – Philanthropists – Badi'i.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا، والصلاة والسلام على من أرسله اللهُ شاهدًا، ومُبَشِّرًا، ونذيرًا، صلاةً وسلامًا متلازمين أبدًا إلى يوم الدين، أما بعد:

فقد أنزل الله هذا الكتاب العظيم، مبهرًا لألباب الفصحاء والبلغاء، فآمنت به النفوس الطيبة، وعانده مَن ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة، كما قال الباري: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

وقد تَحَدَّى اللهُ به العربَ والعجم والإنس والجن، وطلب منهم أن يأتوا بمثله أو شيء من مثله إلا أنهم عجزوا عن ذلك، ولم يسعهم إلا الاعتراف ببلاغته وإعجازه. ومن هذا المنطلق كان الاشتغال بالعلوم التي لها تعلقُ بالقرآن الكريم من أشرف الأعمال وأعلاها؛ فلذلك رغبت أن أكتب في أساليب البلاغة الواردة في القرآن الكريم، وقد اخترت منها أسلوب الاحتباك، لِمَا له مِن تأثير في تدبر معنى الآية للآيات القرآنية الكريمة.

أهمية الموضوع:

١- الاحتباك أسلوب من أساليب القرآن الكريم.

٢- كونه أحد أساليب البلاغة التي تعين على تدبر القرآن الكريم.

٣- أثره الكبير في تصوير وإظهار المعنى القرآني.

أسئلة البحث:

١- متى كان ظهور أسلوب الاحتباك في كتابات أهل العلم؟

٢- ما فائدة أسلوب الاحتباك في معنى الآية؟

٣- ما أنواع أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم؟ وما هي شروطه؟

أهداف الموضوع وسبب اختياره:

١- معرفة نشأة أسلوب الاحتباك والمراحل التي مر بها.

٢- بيان فوائد أسلوب الاحتباك البلاغية وتأثيرها على معنى الآية.

٣- التعرف على أنواع أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم وشروطه.

الدراسات السابقة: لا شك أن موضوع الاحتباك من المواضيع التي لقيت مزيد عناية من الباحثين، كونه يتعلق بعلم البديع والبلاغة، وممن كتب فيه:

- الدكتور عدنان عبد السلام أسعد، في رسالة دكتوراة بعنوان: الاحتباك في القرآن الكريم ـ دراسة بلاغية ـ وكانت بإشراف أ.م.د أحمد فتحي رمضان، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م.

وهناك بعض الأبحاث:

- الدكتور إبراهيم صلاح الهدهد، بحث ترقية بعنوان: الاحتباك في الذكر الحكيم مواقعه وأسراره.

- الدكتور يوسف عبد الله الأنصاري، بحث ترقية بعنوان: الاحتباك في نظم الدرر للبقاعي.

- الدكتور عرفات محمد عثمان، بحث ترقية بعنوان: بلاغة الاحتباك في القرآن الكريم.

- الدكتور عبد الحميد العيسوي، بحث ترقية بعنوان: من صور الحذف البليغ (الاحتباك).

ومما يجدر التنبيه عليه أن هذه الأبحاث والرسائل السابقة ولو أنّها تشابهت في العناوين إلّا أنّ هناك اختلافًا في مضامينها واختبار الأمثلة والأدلة.

ما يضيفه البحث: إن ما يميز هذه الدراسة والجديد فيها هو قيام الباحث بدراسة العديد من الآيات التي تُظهر أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم مستعينًا في ذلك بأقوال المفسرين، ثم القيام بتحليلها للوصول إلى تقديرِ الكلام المحذوف فيها، ثم بعد ذلك دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية للآية الكريمة.

حدود البحث: بعض الآيات التي احتوت على أسلوب الاحتباك.

منهج البحث: سار الباحث على المنهج الوصفي التحليلي حيث قمتُ بجمع النصوص الواردة في حدود البحث، ثم ذكر أقوال أهل العلم حولها، وتقدير الكلام كاملاً، ثم قمتُ بدراستها بعناية مستنبطًا سبب الحذف والاحتباك في الآية.

خطة البحث: يتكون البحث من مقدمة وتمهيد ومبحثين، ثم الخاتمة وفيها أهم النتائج. وقد جاء في المقدمة: أسئلة البحث، وأهمية الموضوع، وأهدافه، وسبب اختياره، والدراسات السابقة، وما يضيفه البحث، وحدود البحث، ومنهجه، وخطته، ثم التمهيد: وفيه: التعريف بالمحسنات البديعية والاحتباك.

وتشتمل خطة البحث على مبحثين، وخاتمة، على النحو الآتي:

المبحث الأول: الاحتباك دراسة نظرية، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: نشأة الاحتباك وتطوره.

المطلب الثاني: شروط الاحتباك.

المطلب الثالث: فوائد الاحتباك.

المطلب الرابع: أقسام الاحتباك.

المبحث الثاني: الاحتباك في القرآن الكريم دراسة تطبيقية، وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الاحتباك الضدي.

المطلب الثاني: الاحتباك المتشابه.

المطلب الثالث: الاحتباك المتناظر.

المطلب الرابع: الاحتباك المنفي المثبت.

المطلب الخامس: الاحتباك المشترك.

الخاتمة: وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

التمهيد

لكل علم من العلوم معنى لغوي وآخر اصطلاحي يميزه عن غيره من العلوم، والفرق بين المعنى اللغوي والاصطلاحي، إنّ الأول يُطلق على المعنى الذي استعمله العرب للكلمة، والثاني: يُقصد به المعنى الذي اصطلح عليه أهل فن معين على إعطائه لتلك الكلمة.

أولا: التعريف بالمحسنات البديعية:

تعددت تعريفات العلماء للمحسنات البديعية، ومن هذه التعريفات ما ذكره الخطيب القزويني في كتابه التلخيص حيث قال: هو ما يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته، هو علم البديع(١).

وعرَّفه ابن خلدون في تاريخه بأنه: النّظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التّنميق إمّا بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللّفظ بينهما وأمثال ذلك ويسمّى عندهم علم البديع(٢).

ثانياً: التعريف بالاحتباك:

الاحتباك لغة: من الحَبْك، ومعناه: الشد والإحكام، وتحسين أثر الصنعة. وقد جاء معنى ذلك في القاموس: "الحَبْك: الشَّدُّ والإحكام، وتحسين أثر الصنعة في الثوب"(٣)، وجاء في اللسان أيضًا: "الحبك الشَّدُّ، واحتبك بإزاره: احتبى به

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة (١/ ٥٠).

(٢) تاريخ ابن خلدون (١/ ٧٦١).

(٣) القاموس المحيط (ص/ ٩٣٥) مادة حبك.

وشدَّه إلى يديه" [١]. قال ابن الأعرابي: "كل شيء أحكمته وأحْسنْتَ عملَه فقد احْتَبَكْتَهُ. وفي الحديث: "إن عائشة رضي الله عنها كانت تَحْتَبِكُ تحتَ الدرع في الصلاة" [٢]، أي: تشدّ الإزارَ وتحكمه" [٣].

قال أبو عبيد القاسم بن سلام: "ويُروى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧] أي: حسنها واستواؤها" [٤].

وبهذا يظهر أن علماء اللغة ذكروا للاحتباك معاني تدور على الإحكام وتحسين الصنعة.

ثانياً: تعريف الاحتباك اصطلاحاً:

الاحتباك اصطلاحاً: قال الجرجاني: "الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويُحذف من كل واحد منهما مقابله؛ لدلالة الآخر عليه" [٥].

وقال الأندلسي في شرح البديعية: "من أنواع البديع الاحتباك، وهو نوع عزيز، وهو أن يُحذف من الأول ما أُثبِتَ نظيره في الثاني، ومن الثاني ما أُثبتَ نظيره في الأول " [٦].

وأما الزركشي في كتابه البرهان فقد عرَّف الاحتباك وسمَّاه الحذف المقابلي، فقال: "الحذف المقابلي: وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابله لدلالة الآخر عليه" [١].

---

(١) لسان العرب (٤٠٧/١٠).

(٢) السنن الكبرى، للبيهقي (ص/٢٢٣). مرسلاً عن أبي عبيد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري (١٥٧٨/٤).

(٤) غريب الحديث، للهروي، (٣٤٢/٥).

(٥) كتاب التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ص/١٢).

(٦) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، (ص/٢٠٤).

وعرّفه الإمام البقاعي فقال الاحتباك: "هو أن يؤتى بكلامين يُحذف من كل منهما شيء إيجازاً، فيدل ما ذُكر من كلٍّ على ما حُذِف من الآخر، وبعبارة أخرى: هو أن يُحذف من كل جملة شيءٌ إيجازاً، ويُذكر في الجملة الأخرى ما يدل عليه" (٢). والتعريفات السابقة متفقة من حيث الجملة في بيان المراد بالاحتباك، وأنه نوع من البديع، وأن فيه إيجازاً.

العلاقة بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي:

وبالنظر إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي نجد أن هناك علاقةً ظاهرةً بينهما، فما حُذِف من الجملة يناظره الفُرَج التي بين خيوط الثوب، وما أُثبِت من الكلام يناظره ما سُدَّت به الفُرَج، وإلى ذلك يشير السيوطي بقوله: "ومأخذ هذه التسمية من الحَبْكِ الذي معناه الشد والإحكام وتحسين أثر الصنعة في الثوب، فحبْك الثوب سد ما بين خيوطه من الفُرَج وشده وإحكامه بحيث يمنع عنه الخلل مع الحسُن والرونق، وبيان أخذه منه من أن مواضع الحذف من الكلام شُبهت بالفُرَج بين الخيوط فلما أدركها الناقد البصير بصوغه الماهر في نظمه وحَوْكه فوضع المحذوف مواضعه كان حابِكًا له مانعًا من خلل يطرقه فَسَدّ بتقديره ما يحصل به الخلل مع ما أكسبه من الحسن والرونق" (٣).

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (ص/١٢٩).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (ص/٢٦٣).

(٣) الإتقان للسيوطي ، ج:٣ ، ص:٢٠٥ .

المبحث الأول

الاحتباك دراسة نظرية

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: نشأة الاحتباك وتطوره:

إنّ أسلوب الاحتباك من الأساليب التي تأخرت تسميتها وإن عُرِفَ مضمونها ، فلم يشتهر ويُذاع بهذا الاسم إلا متأخرًا، إلا أن هناك مِن العلماء في أواخر القرن الثاني الهجري من أشار إليه، لكن دون تفصيل الكلام فيه أو تسميته باسمه المتعارف عليه الآن، وهو الإمام سيبويه المتوفى سنة: (١٨٠ هـ) حيث قال في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ﴾ [البقرة: ١٧١]: "وإنَّما شُبِّهوا بالمنعوق به، وإنَّما المعنى: مَثَلُكم ومَثَلُ الذين كفروا كمثل الناعِق والمنعوقِ به الذى لا يَسمع. ولكنه جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطَب بالمعنى" (١).

وهذا هو الاحتباك بعينه حيث حُذِف من الأول (داعي الكافرين) لدلالة (الذي ينعق) عليه في الثاني، وحُذِف من الثاني (المنعوق به) لدلالة الأول عليه وهو: (الذين كفروا) (٢).

ثم بعد ذلك تتابع المفسرون على الإشارة إلى أسلوب الاحتباك وإن لم يسموه صراحة بهذا الاسم، ومن هؤلاء العلماء الإمامُ الطبري المُتوفّى سنة: (٣١٠هـ) حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة:

---

(١) الكتاب، سيبويه (٢١٢/١).

(٢) انظر: الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية عدنان عبد السلام أسعد(ص/٨).

١٣٥]. أي: وقالت اليهود لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين: كونوا هودا تهتدوا، وقالت النصارى لهم: كونوا نصارى تهتدوا. تعني بقولها تهتدوا: أي تصيبوا طريق الحق" (١).

وسار على الطريق نفسه ابنُ عطية المُتوفى: (٤٧٨هـ)، حيث أشار كذلك إلى معنى الاحتباك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٤] فقال: "تعذيب المنافقين ثمرة إدامتهم على النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية لتلك الإدامة، وثمرة التوبة تركهم دون عذاب، فهما درجتان إقامةٌ على نفاق أو توبة منه، وعنهما ثمرتان تعذيب أو رحمه، فذكر تعالى على جهة الإيجاز واحدة من هاذين ودَلَّ ما ذكر على ما ترك ذكره" (٢).

وفي القرن الخامس الهجري جاء الزمخشري المُتوفى:(٥٣٨هـ)، وأشار إلى معنى الاحتباك وذلك عند تفسيره لقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧] حيث قال: "فإن قلت: لِم ذكَر المَسْ في أحدهما والإرادة في الثاني؟ قلتُ: كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً الإرادة والإصابة في كل واحد من الضر والخير، وأنه لا رادَّ لما يريده منهما، ولا مزيل لما يصيب به منهما، فأوجز الكلام بأن ذَكَر المس وهو الإصابة في أحدهما والإرادة في الآخر ليدل بما ذكر على ما ترك" (٣).

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري (٢/٥٨٩).

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (٤/٣٧٨).

(٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري (٢/٣٧٥).

ثم توالت عبارات العلماء في ذلك مِن غير ذِكْر لاسم الاحتباك صراحة، ومن هؤلاء الرازي المتوفى: (٦٠٦هـ)[١] والقرطبي المتوفى: (٦٧١هـ)[٢].

وفيما مر مِن عزْوٍ لبعض الأمثلة للاحتباك تبرز إشارات تدل على تناولٍ لهذا النوع من أنواع البديع ولو لَمْ يُسمَّ باسمه، لكنها لاشكّ قد وضعت حجر الأساس لهذا المصطلح الجديد، والنواة في تأسيسه.

ثم جاءت بعد ذلك مرحلة بدت فيه الفكرة أكثر نضوجًا من سابقاتها، وذلك من خلال إشارات ذَكرها أبو حيان الأندلسي المتوفى: (٧٤٥هـ)، حيث قال في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]: "هذا من بديع الكلام، إذ حذف شيئا من الأول أثبت نظيره في الآخر، وأثبت شيئا في الأول حذف نظيره في الآخر، وأصل التركيب (ولهن على أزواجهن مثل الذي لأزواجهن عليهن)، فحذفت (على أزواجهن) لإثبات: (عليهن)، وحذف (لأزواجهن) لإثبات (لهن)"[٣].

يقول عدنان عبد السلام أسعد معلقًا على كلام أبي حيان: "ومن هذا الكلام نستنتج أن أبا حيان فرَّق بين الألفاظ المحذوفة، وهو أول من ذكر الاحتباك

---

(١) ذكر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ٤١﴾ [غافر: ٤١] "أن معناها: أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة وتدعونني إلى الكفر الذي يوجب النار. قلتُ: فحُذفت كلمة الجنة لدلالة كلمة النار عليها، وحُذفت كلمة الهلاك لدلالة كلمة النجاة عليها وهذا من الاحتباك". (مفاتيح الغيب، للرازي، ٥١٩/٢٧).

(٢) عَلَّق على قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] فقال: "فيه ثلاث مسائل: الأولى- قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ﴾ أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن". (الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، ١٢٣/٣).

(٣) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، (٤٦٠/٢).

ونَظَّرَ له من غير أن يُسميه، وعده من الفصاحة والبيان، ومن بديع الحذف والكلام، فكل من جاء بعده نقل عنه وأخذ الفكرة ولم يذكر أنه نقل عنه، وبهذا يُعَدُّ أبو حيان هو المنظِّر الأول – إذا صح التعبير – لمفهوم الاحتباك إلاّ أنه لم يُطلِق عليه مصطلحاً ، والذين جاءوا من بعده أخذوا الفكرة منه كما قلنا ثَمّ وضعوا له مصطلحات أشهرها الاحتباك" (١).

ثم تَبِعَ أبا حيان في منتصف القرن الثامن الهجري ابنُ القيم المتوفى: (٧٥١هـ)، فأشار إلى هذا الفن ولم يُسَمِّه احتباكاً، فقال عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] التبتل: الانقطاع، وهو تفعّل من البتل وهو القطع... ومصدر تبتل إليه تبتيلا كالتّعلّم والتّفهم، ولكن جاء على التفعيل مصدر تفعل لسر لطيف فإن في هذا الفعل إيذانا بالتدريج والتكلف، والتعمل والتكثر والمبالغة.

فأتي بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتّل نفسك إلى الله تبتيلا. وتبتل إليه تبتلا. ففُهم المعنيان من الفعل ومصدره. وهذا كثير في القرآن. وهو من حسن الاختصار والإيجاز" (٢).

ثم جاء بعد ابنِ القيم الإمامُ الزركشي المتوفى: (٧٩٤هـ)، وأطلق عليه اسم: الحذف المقابلي، فقال: الحذف المقابلي: وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان، فيحذف من واحد منهما مقابلة لدلالة الآخر عليه(٣).

واستمر الوضع في هذا المصطلح بين تلميح له أو إشارة عليه دون ذكر اسمه صراحة، إلى أن جاء الإمام الجرجاني المتوفى: (٨١٦هـ)، في كتابه

---

(١) الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية عدنان عبد السلام أسعد ، (ص/١٠).

(٢) التفسير القيم للقرآن الكريم، لابن القيم (١/٥٥٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٣ /١٢٩).

التعريفات وصرَّح بمصطلح الاحتباك صراحة، حيث قال: الاحتباك: هو أن يجتمع في الكلام متقابلان، ويحذف من كل واحد منهما مقابله؛ لدلالة الآخر عليه(١).

وسار على الدرب نفسه برهان الدين البقاعي المتوفى: (٨٥٥هـ)، حيث أنه قد أَكْثَرَ مِن ذِكر الاحتباك في كتابه نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، فقد قال عند تفسير لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]: فالآية من الاحتباك، انتفاء الخوف والحزن من الأول دال على وجودهما في الثاني، ووجود النار في الثاني دال على انتفائها ووجود الجنة في الأول(٢).

ولم يكتف البقاعي بالتوسع بذكر أمثلة الاحتباك في تفسيره بل إنه صنَّف كتاباً خاصاً بالاحتباك وسماه: الإدراك لفن الاحتباك، فقد قال: وقد جمعت فيه كتاباً حسناً ذكرت فيه تعريفه، ومأخذه من اللغة، وما حضرني من أمثلته من الكتاب العزيز وكلام الفقهاء، وسميته: الإدراك لفن الاحتباك"(٣).

ثم جاء بعد البقاعي السيوطي المتوفى: (٩١١هـ)، وقد توسع في هذا الباب، وذلك بجعله واحداً من أقسام الحذف، حيث قال: "النوع الثالث: ما يسمى بالاحتباك وهو من ألطف الأنواع وأبدعها وقلَّ من تنبه له أو نبه عليه من أهل فن البلاغة"(٤)، وقد نظّر له وعدّه من أجمل أنواع الحذف والإيجاز، وعزاه إلى البقاعي(٥).

---

(١) التعريفات (ص/ ١٢).

(٢) نظم الدرر (١/٣٠٢).

(٣) نظم الدرر (١/٢٢٥). ولا يوجد هذا الكتاب مطبوعاً، وقد أشار د. عدنان أسعد أنه من الكتب المفقودة.

(٤) الإتقان في علوم القرآن (٣/٢٠٤).

(٥) انظر: السابق.

ثم جاء العلماء بعد السيوطي رحمه الله وتكلموا عن الاحتباك غير أنهم لم يضيفوا فيه شيئاً زائدًا على ما ذكره العلماء السابقون لهم، فاكتفوا غالباً بالأمثلة التي أوردها مَن سبقهم، ومن هؤلاء: الألوسي[١]، والقاسمي[٢]، وابن عاشور[٣]، وأما الشعراوي فقد ذكر له اسماً آخر مع الاحتباك، وهو: تربيب الفوائد[٤].

المطلب الثاني: ضوابط الاحتباك وشروطه :

لابد للقارئ أن يعلم أنّه ليس كل حذفٍ في الكلام دليلا على أن الكلام سِيقَ على أسلوب الاحتباك، بل هناك من الأساليب ما قد يُحذف منها بعض الكلام على وجه الاختصار ليس إلاَ، ولا دخل لأسلوب الاحتباك فيه، ومن هنا يجدر بنا معرفة شروط الاحتباك التي يجب توفرها فيه؛ حتى نستطيع الحُكم على الكلام هل هو من الاحتباك أم لا، ومن هذه الشروط[٥]:

١- أن يدعو إليه داعٍ بلاغي يجعل الحذف أبلغ من الذكر.

٢- أن يكون في الكلام بعد الحذف دليل على المحذوف.

٣- وجود متقابلين في كل من الجملتين في الكلام.

٤- أن يحذف من كلتا الجملتين ما أُثبت في الأخرى.

٥- أن يدلّ ما بقي على ما حذف من الأخرى.

---

(١) انظر: روح المعاني (٣٢٥/١).

(٢) انظر: محاسن التأويل، (٣١٢/٦).

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور (٣٨٩/٧).

(٤) حيث قال: وهذه الأوجه التي يحتملها التعبير القرآني دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد. انظر: (خواطر الشعراوي، ٧٩٤٦/١٣) الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية لعدنان عبد السلام أسعد ، ص:١٣.

(٥) انظر: الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية لعدنان عبد السلام أسعد ، (ص/ ١٣).

المطلب الثالث: فوائد الاحتباك:

إنّ لأسلوب الاحتباك فوائد بلاغية كغيره من الأساليب البيانية، فالحذف في كلام البلغاء والأدباء والشعراء لا يكون إلا لفائدة بلاغية، وليس لمجرد العبث واختصار الكلام، وإذا كان الحذف في كلام البشر يقع لفائدة بلاغية، فهو في كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم أولى وأبلغ. ومما سبق من كلام يحسن بنا معرفة فوائد الحذف – ومنه: الاحتباك– التي ذكرها أهل العلم، وذلك على سبيل الاختصار لا الحصر، **فمن ذلك:** ما ذكره الجرجاني في كتابه دلائل الإعجاز في باب: القول في الحذف: "هو بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تُبِن" (١).

وجاء في كتاب النبأ العظيم "لا نكران أن العرب كانت تعرف شيئًا من الحذف في كلامها، وترى ذلك من الفضيلة البيانية متى قامت الدلائل اللائحة على ذلك المحذوف، ولو كان من أجزاء الجملة ومقوماتها. فإذا قيل للعربي: أين أخوك؟ قال: في الدار. وإذا قيل له: من في الدار؟ قال: أخي. ولو قال: أخي في الدار، لعُدّ ذلك منه ضربًا من اللغو والحشو" (٢).

وقال الدكتور محمد أبو موسى في كتابه خصائص التراكيب: "وأخلُص من هذا إلى أن كل صور الحذف وراءها مزايا ثلاث؛ الأولى: الاختصار، أو الإيجاز ... والثانية: صيانة الجملة من الثقل، والترهل اللذين يَحدُثا من ذِكر ما

---

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني، لعبد القاهر الجرجاني (١/١٤٦).

(٢) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، لمحمد بن عبد الله دراز (ص/١٧٠).

تدل عليه القرينة، والثالثة: إثارة الفكر والحس بالتعويل على النفس في إدراك المعنى" [1].

ومن خلال النقول السابقة يتبين أن من فوائد الحذف، وهي فوائد في الاحتباك كذلك:

١- أنه أبلغ من ذكر الكلام بلا حذف.

٢- أن الحذف ومنه الاحتباك أبعد عن اللغو والاطالة في الكلام من غير حاجة.

٣- إثارة الفكر لإدراك المعنى.

المطلب الرابع: أقسام الاحتباك:

إن لأسلوب الاحتباك أقسامًا كغيره من الأساليب التي تتنوع وتتفرع، وقد قام الدكتور عدنان عبد السلام أسعد بدراسة هذه المواضع وتتبعها ثم قسمها تقسيماً بديعاً إلى خمسة أقسام - **وهذا ما قد بنيت عليه تقسيمات الاحتباك في بحثي** - فقال [2]:

١- الاحتباك الضدي: وهو أن يحذف من الأول ما أثبت ضده في الثاني ومن الثاني ما أثبت ضده في الأول.

٢- والاحتباك المتشابه: وهو أن يحذف من الأول ما أثبت مثله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مثله في الأول.

٣- والاحتباك المتناظر: وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول.

---

(١) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، لمحمد محمد أبو موسى، (١٦١/٧).

(٢) انظر: الاحتباك في القرآن الكريم رؤية بلاغية (ص/٧٦).

٤- والاحتباك المنفي: المثبت وهو أن يحذف من الأول ما أثبت منفيه في الثاني ومن الثاني ما أثبت منفيه في الأول.

٥- والاحتباك المشترك: وهو النوع الذي يجمع كل الأنواع التي ذكرت آنفاً، فيحذف من الأول ما أثبت ضده في الثاني ومن الثاني ما أثبت منفيه في الأول، أو يحذف من الأول ما أثبت ضده في الثاني ومن الثاني ما اثبت مثله في الأول، أو يحذف من الأول ما أثبت مثله في الثاني ومن الثاني ما أثبت نظيره في الأول.... الخ.

وسيأتي مزيد من التفصيل – إن شاء الله – لهذه الأقسام في الاحتباك في القرآن الكريم دراسة تطبيقية.

المبحث الثاني

الاحتباك في القرآن الكريم دراسة تطبيقية

وفيه خمسة مطالب:

المطلب الأول: الاحتباك الضدي في القرآن الكريم:

وهو أن يُحذف من الأول ما أثبت ضده في الثاني، ومن الثاني ما أثبت ضده في الأول، وهو أكثر الأنواع وروداً في القرآن الكريم وأوضحها، وفيما يلي بعض الأمثلة التطبيقية عليه.

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال أبو حيان: "فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة أي: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وفئة أخرى تقاتل في سبيل الشيطان، فحُذف من الأولى ما أُثبتت مقابله في الثانية، ومن الثانية ما أُثبت نظيره في الأولى، فذكر في الأولى لازم الإيمان، وهو القتال في سبيل الله. وذكر في الثانية ملزوم القتال في سبيل الشيطان، وهو الكفر"(١).

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان، فحُذف من الجزء الأول من الآية ما يدل عليه الجزء

(١) البحر المحيط في التفسير (٣/٤٥).

الثاني منها، وحذف من الجزء الثاني ما يدل عليه ما ذكر في الجزء الأول منها.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

وقوع الاحتباك الضدي في الآية الكريمة له سبب، ولعله – والله أعلم – أن لفظ: ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لازم لوجود الإيمان ودليل عليه، فإن ذُكِر لفظ الجهاد فلا داعي لذكر لفظ الإيمان معه، بل إن الجهاد في سبيل الله من أعلى مراتب الإيمان، فقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: (ألاَ أخبرك برأس الأمر كله وعموده، وذروة سنامه؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد)[1]، وأما لفظ ﴿كَافِرَةٌ﴾ فيدخل فيها كل الصفات المذمومة والتي من جملتها الصد عن سبيل الله، والقتال في سبيل الشيطان، فإن ذُكِر في الآية: تقاتل في سبيل الشيطان؛ لَتَوَهَّم متوهِّمٌ بأن هذه الصفة الوحيدة المذمومة التي يُذَمُّون بها.

وقد أجاب البسيلي عن سببِ التعبير في الآية الكريمة بالجملة الفعلية أولاً، وبالاسميّة ثانيًا، ولِم لم يأتِ السياق على النحو الآتي: (فئة مقَاتِلة في سبيل الله، وأخرى كافرة، أو فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى تكفر)؟! فقال: "الجواب: أن القتال أمر فعلي متجدد فناسب التعبير عنه بالفعل المضارع، والكفر أمر اعتقاديٌّ قلبي فهو ثابت، فناسب التعبير عنه، بالاسم المقتضى للثبوت"[2].

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]

---

(١) سنن الترمذي، (٤/٣٠٨) رقم: ٢٦١٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد، للبسيلي (ص/٤٦٤).

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال شهاب الدين الخفاجي: "هو من الاحتباك البديعي والتقدير ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعدّ لهم ثواباً عظيماً ويسأل الكافرين عن كذبهم، وأعدّ لهم عذاباً أليما فحذف من كل منهما ما ثبت في الآخر"(١).

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: ليسأل الصادقين عن صدقهم، وأعد لهم ثواباً عظيماً، ويسأل الكافرين عن كذبهم وأعد لهم عذاباً أليمًا، فحُذِف من الجزء الثاني فيها، تقدير: ويسأل الكافرين عن كذبهم. لدلالة وجود: ﴿**لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ**﴾ في الأول عليه. وحُذِف من الجزء الأول فيها: أعد لهم ثواباً عظيماً، لدلالة وجود: ﴿**وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ في الثاني عليه.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

وقوع الاحتباك الضدي في الآية الكريمة له سبب، وذلك بحسب تقدير المحذوف، فأما سبب حذف تقدير: وأعد لهم ثوابًا عظيمًا؛ فهو وجود لفظ الصادقين الدالة على الإيمان والعمل الصالح والذي بسببها يُجازى العبد الثواب العظيم من الله الكريم، فحقيقة الإيمان هو التصديق بمعناه الشرعي. وأما علَّة حذف تقدير: ويسأل الكافرين عن كذبهم، فقوله تعالى: ﴿**وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ فهم ما استحقوا هذا العذاب إلّا لفرطهم بالكفر والكذب، ثم إنهم ليسوا أهلاً لخطاب الله تعالى لهم، فكما أعرضوا عن الإيمان بالله تعالى في الدنيا أعْرَضَ اللهُ عن ذِكر سؤالهم.

---

(١) حاشية شهاب الدين على تفسير البيضاوي، للخفاجي (٧/١٦٠).

المطلب الثاني: الاحتباك المتشابه في القرآن الكريم:

وهو أن يُحذف من الأول ما أثبت مثله في الثاني، ومن الثاني ما أثبت مثله في الأول".

المثال الأول: قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال محمد الشربيني: ﴿**وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ**﴾ أي: بما عملوا إقراراً هو أعظم شهادة ﴿**وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ**﴾ أي: عليهم بكلام بين هو مع كونه شهادة إقرار ﴿**بِمَا كَانُوا**﴾ أي: في الدنيا بجبلاتهم ﴿**يَكْسِبُونَ**﴾ فكل عضو ينطق بما صدر عنه، فالآية من الاحتباك[(١)].

وقال ابن عاشور: "والمراد بتكلم الأيدي تكلمها بالشهادة، والمراد بشهادة الأرجل نطقها بالشهادة، ففي كلتا الجملتين احتباك. والتقدير: وتكلمنا أيديهم فتشهد وتكلمنا أرجلهم فتشهد"[(٢)].

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: وتكلمنا أيديهم وتشهد، وتكلمنا أرجلهم وتشهد، فحذف من الكلام في الجزء الأول من الآية: (تشهد) لوجودها في الجزء الثاني من الآية، وحذف من الكلام في الجزء الثاني من الآية: (تكلمنا) لوجودها في الجزء الأول من الآية.

---

(١) السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، للشربيني (٣/٣٥٩).

(٢) التحرير والتنوير(٢٣/٥٠).

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن هذه الآية الكريمة جاءت في سياق إقرار الكفار وأهل المعاصي بذنوبهم، والمقام مقام محاكمة وقصاص، وفي المحاكمات أول ما يكون الكلامُ ثم يأتي بعد ذلك حضور الشهود لزيادة التأكيد والإثبات، ولأن أقوى أنواع الإقرار على النفس ما يكون بالكلام والنطق، فلذلك قُدِّم ذِكر الكلام في الآية على الشهادة. ولأن ما يقترفه ابن آدم مِن الذنوب بيده أكثر مما يقترفه برجليه جاء تقديم الأيدي على الأرجل في سياق هذه الآية الكريمة، والله أعلم.

قال سيد طنطاوي رحمه الله: " وجعل- سبحانه- ما تنطق به الأيدى كلاما، وما تنطق به الأرجل شهادة، لأن مباشرة المعاصي- غالبا- تكون بالأيدى، أما الأرجل فهي حاضرة لما ارتكب بالأيدى من سيئات، وقول الحاضر على غيره شهادة بما له، أما قول الفاعل فهو إقرار ونطق بما فعله"(١).

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿**إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾ [الأنفال: ٦٥]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال أبو حيان: "والتقييد بالصبر في أول كل شرط لفظا هو محذوف من الثانية لدلالة ذكره في الأولى وتقييد الشرط الثاني بقوله: من الذين كفروا لفظا هو محذوف من الشرط الأول في قوله: يغلبوا مائتين فانظر إلى فصاحة هذا الكلام حيث أثبت قيد من الجملة الأولى وحذف نظيره من الثانية وأثبت قيد في الثانية وحذف من الأولى ولما كان الصبر شديد المطلوبية أثبت في أولى جملتي التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه ثم ختمت الآية بقوله

(١) انظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي (١٢/٤٨).

والله مع الصابرين مبالغة في شدة المطلوبية ولم يأت في جملتي التخفيف قيد الكفر اكتفاء بما قبل ذلك"[١].

وقال البقاعي: "فالآية من الاحتباك: أثبت في الأول وصف الصبر دليلاً على حذفه ثانياً، وفي الثاني الكفر دليلاً على حذفه أولاً" [٢].

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين من الذين كفروا وإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق تحريض النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين على جهاد أعداء الدين بالسيف، ولا شك أن القتال يحتاج إلى صبر في لقاء العدو، وكلما كان العدد أقلَّ كانت الحاجة للصبر أكثر، فلمّا كان العدد المذكور في هذه الآية عشرين وهو أقل من المائتين ذُكِر الصبر معه، ولَمَّا أكَّد عليهم التَّحَلِّي بالصبر لم يصرح بهوية أعدائهم، لأن القضية هنا هي التأكيد على مفتاح الانتصار وهو الصبر، فلمَّا امتثل القوم لهذا التوجيه الرباني أفصح الباري عن هوية عدوهم في الجزء الثاني من الآية، والله أعلم.

---

(١) البحر المحيط في التفسير(٥/٣٤٩).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٨/٣٢٢).

المطلب الثالث: الاحتباك المتنـــاظر:

وهو أن يُحذف من الأول ما أثبت نظيره في الثاني، ويُحذف من الثاني ما أُثبت نظيره في الأول. والفرق بينه وبين الذي قبله أن التماثل والتشابه يكون من كل وجه، أما التناظر فيكون بينهما تشابه من بعض الوجوه.

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]}

أقوال العلماء في الآية الكريمة: قال السمين الحلبي: "وهذا من بديع الكلام، وذلك أنه قد حذف من أوله شيء أثبت في آخره نظيره، وحذف من آخره شيء أثبت نظيره في الأول، وأصل التركيب. ولهن على أزواجهن مثل الذي لأزواجهن عليهن، فحذف «على أزواجهن» لإثبات نظيره وهو ﴿عَلَيْهِنَّ﴾، وحذفت «لأزواجهن» لإثبات نظيره وهو ﴿وَلَهُنَّ﴾"(١).

وقال ابن عاشور: "وفي الآية احتباك، فالتقدير: ولهن على الرجال مثل الذي للرجال عليهن، فحذف من الأول لدلالة الآخر، وبالعكس. وكان الاعتناء بذكر ما للنساء من الحقوق على الرجال، وتشبيهه بما للرجال على النساء لأن حقوق الرجال على النساء مشهورة، مسلمة من أقدم عصور البشر، فأما حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها، حتى جاء الإسلام فأقامها"(٢).

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: وللنساء على الرجال من الحقوق مثل الذي

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي (٢/٤٤٣).

(٢) التحرير والتنوير(٢ /٣٩٦).

للرجال عليهن من الحقوق. فحُذف من الجزء الأول من الآية: على أزواجهن، لإثبات نظيره في الجزء الثاني من الآية وهو: ﴿عَلَيْهِنَّ﴾، وحذف من الجزء الثاني من الآية: لأزواجهن، لإثبات نظيره في الجزء الأول من الآية وهو: ﴿وَلَهُنَّ﴾.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق الطلاق بين الزوجين، ولَمَّا لم يكن للنساء في الجاهلية أي حقوق لا في طلاقٍ أو ميراثٍ جاءت هذه الآية تأمر بإعطاء المرأة حقوقها التي قد أضاعها العرب في الجاهلية، وقد جاء التأكيد على ذلك كذلك في حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة)[1]، فإذا عُلِم ذلك عُرِفت علة ذِكْر النساء وحدهن صراحة في سياق الآية. ولَمَّا كانت الحقوق التي للرجال على النساء، مشابهة من وجه دون وجه للحقوق التي هي للنساء على الرجال، صار هذا من نوع الاحتباك المتناظر، والله أعلم.

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال البقاعي: "فالآية من الاحتباك؛ حذف أولاً كون الأراضي سبعاً لدلالة الثاني عليه، وثانياً كون ما في السماء لنا لدلالة الأول عليه"[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد، (٤١٦/١٥) رقم: ٩٦٦٦، وابن ماجه، (٢ /١٢١٣) رقم: ٣٦٧٨، والبزار،(١٥ /١٥٢) رقم: ٨٤٨٣ ، والحاكم في المستدرك على الصحيحين، (١٣١/١) رقم: ٢١١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٢٢٤/١).

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: الذي خلق سبع أرضين، وجعل ما فيها لكم، وخلق سبع سماوات، وجعل ما فيها لكم، فحذف من الجملة الأولى عدد السبع أرضين لدلالة الثاني (السبع سماوات) عليه، وحذف من الثانية كون خلقها (لكم) لدلالة الأول عليه (خلق لكم ما في الأرض).

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق ذِكر نِعم الله على عباده، فكونهم موجودين على الأرض أدعى لالتماسهم واستشعارهم النعم الموجودة على الأرض أكثر مما هو موجود في السماء، فلذلك ذُكِرت الأرض في سياق ذِكر النعم، ثم لَمَّا ذَكَر السماء وخلقها سبع سماوات وهو معلوم مستقر في نفوس القوم، لم يذكر سبع أرضين لأن القوم قوم أميّون قد لا يدركون هذا الأمر، فلذلك لم يذكر في سياق الكلام، والله أعلم.

المطلب الرابع: الاحتباك المنفي المثبت:

وهو أن يُحذف من الأول ما أُثبت منفيه في الثاني، ويحذف من الثاني ما أُثبت منفيه في الأول. ومعنى ذلك أن تكون العلاقة بين المعنيين قائمة على النفي والإثبات، فيحذف من الأول كلمة مثبتة لدلالة نفيها في الثانية، ومن الثانية كلمة مثبتة لدلالة نفيها من الأولى، أو العكس.

المثال الأول: قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال البقاعي: "فالآية من الاحتباك: ذكر الاستعجال أولاً دليلاً على حذف ضده ثانياً، والإشفاق ثانيًا دليلاً عل حذف ضده أولاً "[(١)].

وقال القِنَّوجي: "ففي الآية احتباك حيث ذكر الاستعجال أولاً، وحذف الإشفاق، وذكر الإشفاق ثانياً وحذف الاستعجال"[(٢)].

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام هو: يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها وهم غير مشفقين منها، والذين آمنوا مشفقون منها ولا يستعجلونها. فحذف من الأول: ذكر الإشفاق لدلالة الثاني: ﴿مُشْفِقُونَ﴾ عليها، وحذف من الثاني: الاستعجال لدلالة الأول عليه ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق بيان أحوال الناس تجاه الساعة، فلما ذكر الكفار ذكر الاستعجال معهم، لأن حالهم الدائم العجلة وعدم التأني، بخلاف أهل الإيمان الذين من صفاتهم التأني والتؤدة. ولما ذكر أهل الإيمان ذكر معهم الإشفاق والخوف من قيام الساعة لأنهم يؤمنون بها ويعلمون ما فيها من أهوال وكروب، وأما الكفار فهم لاهون منغمسون في دنياهم وشهواتهم فهم أَبْعَدُ الناس عن الساعة والخوف منها، والله أعلم.

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٨٣/١٧).

(٢) فتحُ البيان في مقاصد القرآن، للقِنَّوجي (٢٩١/١٢).

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال البقاعي: "فالآية من الاحتباك: ذكر الاستكبار أولاً دليلاً على حذفه ثانياً، والتسبيح ثانياً دليلاً على حذفه أولاً" (١).

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام هو: فإن استكبروا عن العبادة ولم يسبحوا فالذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه بالليل والنهار وهم لا يسأمون. فنفى عن الأول التسبيح وأثبته للثاني، ونفى عن الثاني الاستكبار وأثبته للأول، فدل كل محذوف على الآخر.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق ذم الكفار ومدح الملائكة، فلما كان الكلام عن الكفار ذكر الباري أسوأ صفاتهم وأقبحها وهو الكبر، وسكت عن ذِكر التسبيح لأنهم ليسوا أهلا له، ولما كان الكلام عن الملائكة ذكر الباري أحد صفاتهم وهو التسبيح الدائم الذي لا يعتريه فتور أو ملل، ولم يذكر نفي الاستكبار عنهم؛ لأنهم جبِلوا وخُلقوا على الطاعة المطلقة، والله أعلم.

المطلب الخامس: الاحتباك المشترك:

الاحتباك المشترك: وهو النوع الذي يجمع كل الأنواع التي ذُكرت آنفاً. فيُحذف من الأول ما أُثبتَ ضده في الثاني، ويُحذف من الثاني ما أثبت منفيه في الأول.

أو يحذف من الأول ما أثبت ضده في الثاني، ويُحذف من الثاني ما أُثبت مثله في الأول.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(١٧/١٩٦).

أو يحذف من الأول ما أثبت مثله في الثاني، ويُحذف من الثاني ما أثبت نظيره في الأول....الخ.

المثال الأول: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال البقاعي:" فالآية من الاحتباك: حذف من الأول الحياة لدلالة ﴿**الْمَوْتَى**﴾ عليها، ومن الثاني السماع لدلالة ﴿**يَسْمَعُونَ**﴾ عليه" (١).

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام هو: إنما يستجيب لك يا محمد (أهل الإيمان) الذين يسمعون، والموتى (أي الكفار) يبعثهم الله وهم لا يسمعون. وفي الآية مقارنة بين المؤمنين والكافرين فحذف من الأول كلمة (الأحياء) لدلالة الكلمة التي ضدها وهي: ﴿**الْمَوْتَى**﴾ وحُذف من الثاني كلمة: ﴿**يَسْمَعُونَ**﴾ لدلالة منفيها (لا يسمعون). وعلى هذا المعنى نجد أن الآية قد جمعت بين الاحتباك الضدي والمنفي المثبت.

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق المقارنة بين أهل الإيمان والكفار، فعندما كان الحديث عن المؤمنين ذكر الله أَهَمَّ صفاتهم وهي سماع الأوامر والامتثال لها، كما قال تعالى مادحًا لهم: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ولم يذكر لفظ (المؤمنين) ولفظ (الأحياء) لدلالة لفظ ﴿**يَسْتَجِيبُ**﴾ و ﴿**يَسْمَعُونَ**﴾ عليها. ثم لما كان الحديث عن الكفار؛ جاء

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠٢/٧).

وصفهم بأنهم أموات، ولم يذكر لفظ (لا يسمعون) أو (لا يستجيبون) لأنه معلوم ومستقر بأن الكفار أبْعَدُ الناس عن سماع ما ينفعهم فضلاً عن الاستجابة له، وقد جاء وصفهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]، ويجمع كل ما مر قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾، والله أعلم.

المثال الثاني: قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]

أقوال العلماء في الآية الكريمة:

قال البقاعي:" أي أن المراد من الإبلاغ في البيان أن يزداد الجهلة به جهلاً، ويهتدي من كان للعلم أهلاً، فلا يقولون: «دارست»[(١)] بل يقولون: إنه من عند الله، فالآية من الاحتباك: إثبات ادعاء المدارسة أولاً يدل على نفيها" [(٢)].

تقدير الكلام:

فعلى ما مر يكون تقدير الكلام: نصرف الآيات لهم فيقول الجاهلون أنك دارستَ فيزدادوا جهلاً، ويهتدي أهل العلم فلا يقولوا إنك دارستَ، فحذف من الأول (عدم العلم) لدلالة ضده في الثاني (يعلمون) وحذف من الثاني (لم تدارس) لثبوت منفيه في الأول (درستَ)، وعلى هذا المعنى نرى أن الآية جمعت بين الاحتباك الضدي والمنفي المثبت.

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وأبو عمرو، انظر: النشر في القراءات العشر، لابن الجزري (٢/٢٦١).

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(٧/٢٢٤).

دراسة سبب الحذف وتأثيره في معنى الآية:

إن الآية الكريمة جاءت في سياق المقارنة بين أهل العلم والإيمان وبين أهل الجهل والفسوق والكُفران، فلَمَّا كان الحديث عن أهل الجهل والكفران اكتفى الباري عز وجل بذِكْر مقولتِهم القبيحة، لأن مثل هذه المقالة القبيحة لا تصدر إلاّ مِن جاهلٍ لا يعرف للنبي صلى الله عليه وسلم قدرًا، فمِن المناسب أن لا يُذكر في سياق الكلام، أولا: لدلالة ما يُشير إليه في جزء الكلام الآخر وهو قوله سبحانه: ﴿**يَعْلَمُونَ**﴾، ثم لأن الأهم هو ذِكر المقولة للحَذَر منها لا مَن قالها.

وأمَّا علة حذف (لم تدارس) من جزء الآية الآخر فالذي يظهر للباحث أنه تعالى قد وصَف القوم بالعِلْم، وفي هذا تزكية لهم ولأخلاقهم ولأقوالهم، فلا يُتصور معه صدور مثل هذه الأقوال القبيحة منهم، فهم بمكانٍ لا يحتاجون معه نفي ما ثبت من أخلاق وأقوال سيئة لغيرهم، والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد الانتهاء من كتابة البحث، ظهر للباحث نتائج، ومن أهمها:

١- أن أسلوب الاحتباك أسلوب قد تناوله العلماء منذ زمن بعيد، وأول من أشار إليه الإمام سيبويه في كتابه الكتاب، لكنه لم يذكره باسمه صراحة، ولم يسهب فيه كذلك.

٢- يُعد أبو حيان أول من توسع في مفهوم الاحتباك إلا أنه لم يطلق عليه مصطلح الاحتباك.

٣- لم يظهر أسلوب الاحتباك إلا في أواخر القرن السابع الهجري.

٤- الاحتباك من علم البديع مبني على مبدأ الحذف والاختصار وهو من بدائع القرآن وإيجازه الرائع.

٦- يُعد البقاعي أكثر العلماء مهارة في الحديث عن الاحتباك، ذكر ما يقارب "الثلاثمائة" موضعاً في تفسيره.

٧- للاحتباك أثر كبير في تصوير المعنى القرآني وتأثيره في نفوس القارئين لكتاب الله.

٨- للاحتباك شروط لوقوعه فليس كل حذف في الكلام يدل أن فيه احتباكاً.

المراجع

- الإيضاح في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر، القزويني، المعروف بخطيب دمشق، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: دار الجيل – بيروت، الطبعة: الثالثة.
- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت ، الطبعة: ١٤٢٠ هـ .
- البرهان في علوم القرآن، لمحمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى، طبعة: ١٣٧٦هـ.
- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن محمد، الناشر: الدار التونسية للنشر، طبعة: ١٩٨٤ هـ.
- التفسير القيم للقرآن الكريم، لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٠هـ.
- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة.
- الجامع لأحكام القرآن، لمحمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، الناشر: دار الكتب المصرية، طبعة:١٣٨٤هـ.

- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، لمحمد محمد أبو موسى، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة.
- دلائل الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة.
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لعبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: ١٤٠٨هـ.
- رسالة دكتوراة بعنوان: الاحتباك في القرآن الكريم ـ دراسة بلاغية ـ لعدنان عبد السلام أسعد، وكانت بإشراف أ.م.د أحمد فتحي رمضان، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الموصل، ٢٠٠٥م.
- السنن الكبرى، لأحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م.
- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة: ١٣٩٤هـ .
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، لإسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين – بيروت ، الطبعة: ١٤٠٧هـ.

- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: الدكتور حسين محمد محمد شرف، أستاذ بكلية دار العلوم، مراجعة: الأستاذ عبد السلام هارون، الأمين العام لمجمع اللغة العربية، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.
- القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
- كتاب التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، المحقق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ .
- الكتاب، لعمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه، الحارثي بالولاء، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، مع الكتاب حاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري، وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعى، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ
- لسان العرب، لابن منظور، محمد بن مكرم، الناشر: دار صادر– بيروت، طبعة:١٤١٤هـ.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لعبد الحق بن غالب ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، الناشر: دار الكتب العلمية: ١٤٢٢ هـ.
- مفاتيح الغيب، لمحمد بن عمر الرازي، تحقيق: مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثالثة ١٤٢٠ هـ.
- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- نظم الدرر، لإبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.